الـ "Hand Cam"

أو عري الكائن

محمد اشويكة

1

طفحت في السنوات الأخيرة مصطلحات تقنية عديدة ترتبط بالمجال البصري من قبيل الـ "Hand Cam" و"Web Cam" و"Gsm Cam"... وغيرها من الكاميرات المحمولة، اليدوية، المتحركة أو الثابتة... وهي "أعين" اصطناعية أتاحت استعمال الكاميرا كعين "بشرية ــ تقنية" للإنسان المعاصر... مع هذه الطفرة، وفي ظل الاستعمالات المتعددة لمبتكراتها البصرية... تتوالد عدة إشكالات تقنية ووجودية وأخلاقية...

راهنت التكنولوجيات البصرية الحديثة على تزويد الإنسان بأعين إضافية تختلف وظائفها وتجعل استعمالاتها متعددة وسهلة الاستعمال ولا تتطلب الكثير من الإضاءة أو الدراية أو الضبط (Le réglage)... فغالبا ما يتم ضبطها بشكل أوتوماتيكي مما يجعلها تتلاءم وكافة أو جل الوضعيات التي يكون فيها وعليها المُسْتَعْمِل.

ما يثير في هذه الأدوات عدم اقتصارها على فئة دون أخرى، وانتشارها لدى فئات وطبقات اجتماعية متنوعة... أثمنتها تكاد تكون في "المتناول"، وكأن العصر الحالي يريد من الإنسان المعاصر أن يرى أكثر! أو يرى أنه لا يرى أكثر! أو لا يحسن الرؤية!

2

عندما يضع الإنسان بينه وبين الموضوع "المُصَور" عينا أخرى، أو يضع عينه في العين الاصطناعية، تتبدل لديه الرؤية، ويُفْرَض عليه التجزيء، ويضع خبرته البصرية الطبيعية أمام محك الآلة.

تفرض عليه هذه الوضعية التأرجح بشكل مفارق بين السلبي والإيجابي... إذ ما حدود حرية الفرد في التقاط ما يريد؟ هل العالم أستوديو مفتوح للعموم؟ هل الكاميرات الشخصية تصور المواضيع المرتبطة بشخص حاملها ولا تتجاوز ما سواه؟ ما دور الأخلاق هنا وما حدودها؟ كيف يتسنى للإنسان باعتباره كائنا فضوليا كبح "غريزة حب التصوير"؟

3

أصبح الإنسان يصور نفسه ويصور العالم. إن هذه الإدارة الذاتية لدواليب الآلة وشروط إنتاج الصورة عبرها، جعلت الإنسان كائنا مزودا بطاقة تفاعلية وانفعالية تجاه نفسه وتجاه العالم(1). غالبا ما نشاهد في الشارع أناسا يصورون أنفسهم في أوضاع وبتقنيات مختلفة تثير الكثير من التساؤل: لماذا بهذه الطريقة؟ ما الطرق الممكنة للرؤية الذاتية؟ هل يتوصلون إلى صورة تحقق لهم الرضا التام عن أنفسهم؟ أم أن عملية التصوير الذاتي عملية متجددة وخاضعة لظروف وحالات عدة؟

عندما يحمل الكائن كاميراه اليدوية المحمولة، وهي كاميرا خفيفة الوزن، لها قدرات تقنية لا تصل إلى مستوى الجودة التقنية الاحترافية ولكنها تضمن جودة مقنعة لحاملها على الأقل؛ فإنه يضمن أن تَلِجَ معه كل الأماكن (مع استثناءات قليلة)... إن في ذلك "ولوج لعوالم الكائنات الأخرى". يتجاوز الأمر مجرد حمل للكاميرات، ليتحول فعل الحمل ذلك إلى "حمل" "أناس" آخرين: عندما يتم تصوير كائن، تلتقط الكاميرا ملامح لحظة إنسانية، وتصور حالة نفسية واجتماعية وثقافية... تصور موضوعا تحول بفعل تلك الآلة إلى متعة، إلى فرجة، إلى مجال واسع للتأويل... وبالتالي، لا يصبح ذلك مجرد استمتاع وتسلية بصرية، بل عملية أَرْشَفَةٍ وتدوين قد يفكر صاحبه في بثه داخل أمكنة وخلال أزمنة مختلفة تتجاوز حدود ونطاقات الاستعمالات الشخصية كالبث المترلي العائلي أو عبر شبكة الانترنيت أو التجميع في المدونات الشخصية الرقمية... وهذا ينقلنا من الفعل الفردي (الرؤية الذاتية) إلى الفعل الجماعي (الرؤية المتقاطعة)... فكيف تتداخل هذه المستويات؟

4

يغير استعمال هذه الكاميرات موقفنا كليا من العالم. ويؤثر في تصورنا له وفق ما نصوره وما نريد أن نصوره. هل نستطيع القول إن الإنسان المعاصر قد تحول بفعل هذه المستجدات البصرية إلى "عين تقنية كبيرة" مفتوحة على كل شيء ومنغلقة على كل شيء في آن؟ استطاعت هذه التكنولوجيات أن تخلق الوهم بأن كل شيء أصبح مباحا، وأن فعل الاقتحام البصري هذا لِلَحَظَاتِ الإنسان الأكثر فرحا، أو الأكثر قرحا... لا يفسر إلا شيئا واحدا: قوة الحضارة الراهنة على تعرية الكائن المعاصر من كل شيء، وهنا لا أتحدث عن العري بمعناه الجنسي (الإيروتيكي أو البورنوغرافي) وإنما أتحدث عن تعريته من أي إحساس من شأنه أن يعيق الانتشار الكاسح للمنتجات المادية الاستهلاكية وخصوصا المتعلق منها بصناعة الوهم والفانتازم... إضافة إلى إيديولوجيا الرقابة التي أصبح

كل واحد من هذه الكائنات يمارسها ضد نفسه وضد الآخرين عن وعي أو بدونه. إن غابت الأعين "الرسمية" (العمومية الاحترافية) حضرت الأعين "الخاصة" (الشخصية الهاوية). الجميع منخرط في لعبة كاميرا خفية. فهل حالة الطبيعة مستمرة من حيث الجوهر، و لم يتغير إلا الشكل؟ أم أن طبيعة الإنسان تتأسس على البص والاستعراء والاستعراض؟

5

عندما تقع الأحداث الإنسانية المأساوية (تفجيرات 11 شتنبر وفيضانات تسونامي)، تظهر "الفرجة الفردية" "الرؤية الشخصية" "عين الهاوي" وتحول الحدث إلى مادة بصرية ذات قيمة عالمية مهمة تتسارع وكالات الأنباء والتلفزيونات لتخاطفها وتسويقها كمادة خبرية ناذرة دون التفكير في أبعادها الإنسانية أو الأخلاقية... السبق والتفرد والربح هو الأهم.

إن الحضارة المعاصرة تسير نحو صناعة المراقبة الفردية عن طواعية وبرغبة واندفاع خالصين من الكائن البشري المعاصر، بل الأهم من ذلك، إدخال ذلك في لعبة استهلاكية وفرجوية معقدة جدا.

6

في الدول المتقدمة تكنولوجيا، لا يكاد صدر أي كائن يخلو من تعليق آلة تصوير أو كاميرا يدوية محمولة أو هاتف محمول مزود بعدسة/كاميرا لاقطة... لقد تحولت هذه الآلات إلى أيقونات معاصرة "تزين" السَّمْتَ الإنساني المعاصر، لم تعد مجرد آلات لالتقاط لحظات خاصة تتفاوت قيمتها لدى كل شخص: أعياد الميلاد، حفلات، أعراس... بل تم دمجها في إطار "اللباس العام" للشخصيات القاعدية. فعندما نتمعن بعمق يافطات الإشهار أو الحملات الدعائية الخاصة بتلك الأدوات، نستشف بعمق نية أصحابها في جعلها شيئا حميميا وعاديا وتزيينيا... إنها الأكسسوار المعاصر الذي يلغي **الفروق بين الجنسين**: الكل يعلقه قلادة في عنقه أو على كتفه أو... و**الفروق الاجتماعية**: نجده داخل الفيلات وداخل الأكواخ المعاصرة... أليست هذه لعبة إيديولوجية رقمية بصرية خالصة؟! أليست الـ " Hand Cam" خصوصا، جهازا من أجهزة المراقبة الشخصية والعمومية؟ ألم تقتحم الـ "Web Cam" كل المنازل؟ ألم تصبح تلك المنازل مكشوفة بفعل ذلك الاختراق التقني لمؤسسة الأسر باعتبارها مكانا حميميا جماعيا؟ ألم يعد صدر الإنسان حاملا للمفارقات: كَاتِمٌ/مُجْهِرٌ! مكان لوضع القلادات/حامل لمصنعها المتنقل!

7

إن ما يؤكد ذلك محاولة شركات التلفزيون الاحتكارية العملاقة خلق برامج تحتوي منتوجات تلك "الأعين" الخارجة عن منظوماتها، وذلك من خلال برامج تهتم بها وتشجعها، بل تجازي المواضيع الفريدة من نوعها. وأظن أن المشرفين هنا، يريدون احتواء هذه الظاهرة احتواء لا يخلو من التوجيه المسبق والتحكم عن بعد... فهذه البرامج تحتفي بالمواضيع الثانوية إن لم نقل التافهة، وخصوصا التي تثير الضحك داخل عوالم الإنسان والحيوان معا، والتي لا تخرج في الغالب عن النطاق العائلي كأن نرى حادثة سقوط بسيطة ومضحكة أو مشاحنة بين قطين أو إحدى الحيوانات الأليفة في وضعية ما... أليس في ذلك تدبير ما لهذه الظاهرة؟ ألا يتم هنا خلق عادات جديدة ومنظومة قيمية خاصة؟ لم يعد حامل هذه "الكاميرات" يتتبع كل شيء في المجتمع، و لم يعد يضع أعينه الحقيقية و"عينه التقنية" في قلب الأحداث العامة، بل لم يستطع حتى أن يحول موضوعا شخصيا إلى قضية عامة كمشكل الفردانية والأجواء المغلقة التي خلقتها الحضارة المعاصرة للكائن المعاصر، إذ جعلت منه كائنا فردانيا وحيدا ومنغلقا على ذاته، وفتحت بيته على العالم عبر الانترنيت والفضائيات ووسائل التسلية للانخراط في "مجتمع الفرجة"(2)... إن هذه الفردانية الحقيقية هي ما يريد مجتمع الاستهلاك(3) والفرجة أن يخلقها ويقويها... أرادت أن تجعل من الكائن حيوانا استهلاكيا وفرجويا من خلال هذه الوسائل مع إلغاء كل حس نقدي أو تأملي لقضاياه ومصيره في حمأتها. إن الأمر مفارق فعلا: يتواصل مستعمل الـ "Web Cam" مثلا مع الكل ولكنه وحيد فريد أعزل في نهاية الأمر... يا للاستيلاب والتيه!

لقد تم ربط الفرجة مع الاستهلاك هنا للترابط العضوي بينهما: تنبني الفرجة المعاصرة، خصوصا السينمائية والتلفزيونية منها، على الاستهلاك من خلال لعبة التغيير (jeu de rechange) والتجاوز (التقادم التكنولوجي) [إذ تتغير الأجهزة وتتغير الأنظمة والمُسْتَهْلَكَات "Les consommables" والمُلْحقات "Les accessoires" وتتغير المواضيع "القنوات الموضوعاتية" التي تتغير شفراتها بسرعة، وتتغير تقنيات الربط...]؛ وهذا ما يجعل الأجهزة والمنظومات والوسائل... تتقادم مما يضطر الإنسان إلى تتبع التغييرات الطارئة التي غالبا ما تصبح بفعل الوفرة في المتناول، وهذا ما يبرر إيديولوجيتها، ففي بعض الأحيان يصبح الجهاز أكبر من قيمته... أليست القضية هنا مثيرة بشكل حقيقي؟

لنتأمل: "يستطيع جهاز استقبال رقمي (Récepteur némertien) بقيمة 500 درهم مغربي أو ما يعادل 50 أورو، التقاط ما يزيد عن 5000 قناة وما يزيد مجانا! وهو قابل لإعادة البرمجة (flashage et programmation) الدائمة بفعل سرقة الشفرات السرية للقنوات المشفرة وانتشار القرصنة في دول العالم

الثالث... كما أنه يتيح للمُسْتَعْمِل إدخال وإخراج المواد المبثوثة عبر التسجيل والقراءة على حوامل ووسائط عدة!".

أليس غرض الحضارة الراهنة صناعة إنسان الفرجة الذاتية؟ أليس الهدف تحويل البيت إلى أستوديو؟ أليس الغرض إشغال الأفراد بالفرجة وتوريطهم في استهلاك ما يرتبط بها؟ أليس الغرض قطع أواصر التواصل المباشر وتحويله إلى تواصل وسائطي مسموع ومرئي سَهْلِ المراقبة؟ إذ يكفي أن تكون مزودا بربط هاتفي وصحن مقعر ومرتبط بالوِيبْ كَامْ لتتحول عزلتك إلى تواصل/مراقبة كونية؟

الكل يسير وفق شعار: ابق في مكانك وكل شيء بين يديك! تُوهِمُ الحضارة المعاصرة الإنسان بامتلاك كل شيء، في حين أنها تقدم له ما تريد... يعرف ولا يعرف!

8

إن الخطر الذي تمارسه هذه الكاميرات، رغم تطويرها للملكات الذكائية الفردية، وإن كانت اصطناعية، يكمن في تنميطها للكائن وفي الحد من قدراته وقيمته الخيالية والإبداعية، سيما عندما لا تلبي كل حاجيات مستعمليها، وهذا ما يجعل هامش الحرية الفردية محدودا. إن هذه الوضعية تنعكس سلبا على المُسْتَعْمِل، وترغمه على الدخول في نظام خاص للاشتغال والاستعمال، بل قد تكرهه على السير وفق إمكانيات ومسارات محدودة لا خيار سواها.

حولت هذه الأعين المرافقة للإنسان المعاصر العالم إلى أستوديو مفتوح للتصوير والمراقبة، وبموجب ذلك أصبح لا ينام! لقد حولت عادات الإنسان وأنماط حياته وعيشه: عندما تحضر الكاميرا، يتغير السلوك، يتم التحضير المسبق والإعداد القبلي للأشياء... بمعنى، أن عفوية الكائن، وهي اللحظة الوجودية المهمة، قد اندثرت وتلاشت.

9

ساح حاملوها في ظل عالم السياحة الذي نحياه، واكتشفوا غرائب الدنيا، فاستجابت لذلك... ولما عرضوا ما صوروا، أصبح كل شيء فرجة، وغاب الأهم: تأمل ما تم جمعه، وتحويله إلى مادة للاشتغال على قضايا الآخر المفارق والمختلف قصد مد جسور المعرفة المتبادلة وإضافة معانٍ جديدة للوجود الخاص عبر حضور هذا الوجود المصور الآخر.

تشكل هذه "الكاميرات/الأعين" المحمولة أداة لتقييد وتدوين بعض الأفكار/اللحظات مباشرة من شارع الحياة الصاخب، إذ هناك من ينجح في تحويل هذه المادة إلى منتوج تجاري خالص، وهذا ما تقوم به وكالات الـ "Photage"؛ وهناك من يحول موادها إلى وثائق للاشتغال الأنتروبولوجي والوثائقي... وهناك من يتصرف فيها ويحولها إلى أفلام للفرجة الفردية أو الجماعية جاعلا بذلك بيته "أستوديو صغير" يجري فيه عمليات فنية سمعية بصرية كالمونتاج والميكساج والتسجيل والعرض وغير ذلك.

10

سهلت تقنيات التسجيل والأرشفة والعرض... التعاطي مع هذه الكاميرات، فالحوامل " Les supports" متوفرة ومتعددة، كما يمكن تحويل موادها بسهولة من حامل إلى حامل، إضافة إلى أن طرق إخراج المواد من جهاز إلى جهاز سهلة ومتعددة، فضلا عن إمكانية إعادة العرض الفوري أو مراجعة الموضوع المسجل "Visionnage"... يطرح هذا الأمر مشكلا مهما في حياة الفرد اليومية: فلا يمكن أن تمر هذه العملية دون ترك آثارها على سلوك الفرد ونفسيته وتغيير كيفية رؤيته للأشياء من خلال تعامله اليومي مع تلك الآلات قبل وبعد التصوير. هل يستطيع بالفعل الوصول إلى الهدف الذي رسمه من قبل؟ هل يمتلك وعيا تقنيا وبصريا أم أنه يجرب ويغامر؟ كيف يتعامل مع تلك المواد المصورة؟ هل يحتفظ بها أم يحذفها مباشرة بعد الاستهلاك؟ هل ينتقدها؟

تلك بعضٌ من أسئلة جارفة وأخرى تضرب في الأفق ترتبط بالمشاكل الحارقة لمصائر الذاكرة الفردية والجماعية في ظل تنامي هذه الأعين التقنية، الشيء الذي يعجل بضرورة التربية على السمعي البصري وتدريسه عموما لأن المسألة معرفية وتربوية ووجودية وقيمية...

www.chouika.com

1ـ يعرف فيتجنشتاين العالم من خلال ثلاث تحديدات من المفروض أن تتوافق فيما بينها لتشكيله، وهي: الأفعال داخل مكان منطقي، كلية حالات الأشياء الدائمة، كلية الحقيقة(Wittgenstein, **Tractacus logico-philosophicus**).

2- **La Société du spectacle** est un livre de Guy Debord publié en 1967.

3- Jean BAUDRILLARD; "**La société de consommation:** ***ses mythes, ses structures***" Édition Gallimard, 1970.